السجن الرهيب

محمود سالم

السجن الرهيب

تأليف
محمود سالم

هنـــداوي

السجن الرهيب

محمود سالم

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ٨٣٢٥٢٢ ١٧٥٣ (٠) ٤٤ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: وجدان توفيق

الترقيم الدولي: ٤ ٢٩٠٣ ٥٢٧٣ ١ ٩٧٨

صدر هذا الكتاب عام ١٩٩٣.
صدرت هذه النسخة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢٢.

جميع حقوق النشر الخاصة بتصميم هذا الكتاب وتصميم الغلاف محفوظة لمؤسسة هنداوي.
جميع حقوق النشر الخاصة بنص العمل الأصلي محفوظة لأسرة السيد الأستاذ محمود سالم.

المحتويات

من هم الشياطين الـ «١٣»؟	٧
أبطال هذه القصة	٩
المهمة الخطيرة!	١١
تحالف الذئاب!	١٧
مفاجأة غير متوقعة!	٢١
قلب الجحيم!	٢٧
في قبضة الكولونيل!	٣١
السقوط في الفخ!	٣٥
المهم ... مَن يضحك أخيرًا!	٤١

من هم الشياطين الـ«١٣»؟

إنهم ١٣ فتًى وفتاةً في مثل عمرك، كلٌّ منهم يُمثِّل بلدًا عربيًّا. إنهم يقفون في وجه المؤامرات الموجَّهة إلى الوطن العربي ... تمرَّنوا في منطقة الكهف السِّري التي لا يعرفها أحد ... أجادوا فنون القتال ... استخدام المسدسات ... الخناجر ... الكاراتيه ... وهم جميعًا يُجيدون عدة لغات.

وفي كل مغامرةٍ يشترك خمسة أو ستة من الشياطين معًا ... تحت قيادة زعيمهم الغامض رقم «صفر» الذي لم يرَه أحد، ولا يعرف حقيقته أحد.

وأحداث مغامراتهم تدور في كل البلاد العربية ... وستجد نفسك معهم مهما كان بلدك في الوطن العربي الكبير.

أبطال هذه القصة

رقم «١»: «أحمد» من مصر.

رقم «٢»: «عثمان» من السودان.

رقم «٣»: «إلهام» من لبنان.

رقم «٤»: «هدى» من المغرب.

رقم «٥»: «بو عمير» من الجزائر.

رقم «٦»: «مصباح» من ليبيا.

رقم «٧»: «زبيدة» من تونس.

رقم «٨»: «فهد» من سوريا.

رقم «٩»: «خالد» من الكويت.

رقم «١٠»: «ريما» من الأردن.

رقم «١١»: «قيس» من السعودية.

رقم «١٢»: «باسم» من فلسطين.

رقم «١٣»: «رشيد» من العراق.

رقم «صفر»: الزعيم الغامض الذي لا يعرف حقيقته أحد!

المهمة الخطيرة!

ألقى المهندس «حلمي» نظرةً إلى طفلَيه واحتضنهما بقوة كأنه يخشى من الذهاب بلا عودة، وراقبَته زوجتُه، فأجابها في ثقة: تعرفين أنه من واجبي أن أُرافقَ هذه الشحنة بالذات وألَّا أدعَها تغيب عن عيني أبدًا.

قالت في خوف: ولكن ... ربما يحاولون قتلك مرة أخرى!

ربَّت «حلمي» فوق كتف زوجته مطَمْئنًا وهو يقول لها: لا تخشَي شيئًا بإذن الله ... فمن أجل وطني أنا مستعد لتقديم حياتي فداءً له عن طيب خاطر!

وأكمل حديثه بابتسامة هادئة: وأظن أنهم لن يستطيعوا اقتناصي هذه المرة، خاصة وهناك ثلاثة حراس مدججين بالسلاح ينتظرون أمام باب الشقة، وسيرافقونني خلال هذه الرحلة.

ولكن قلب الزوجة دقَّ في عنف شديد ... كانت تعرف أن زوجها في خطر شديد ... وكان لهذا الخطر أسباب عديدة.

فهو من أمهر علماء بلاده في مجال الطاقة النووية وتحديثها ... وهو عقلٌ فذٌّ أوشك أن يحصل على جائزة «نوبل» ... لولا بعض الأصابع المعادية التي حجبَت الجائزة عنه لاعتبارات خاصة ... كما أنه المسئول عن مشروع أمني ضخم عهدَت إليه بلاده به ... وبدونه يتوقف هذا المشروع وتفقد بلادُه سلاحًا هامًّا في صراعها الدائم ضد أعدائها!

لذلك كلِّه كانت الزوجة تنتفض خوفًا ورعبًا وهي تعرف أن كل خطوة لزوجها محفوفة بالمخاطر والموت.

ثلاث مرات من قبل حاولت الأصابع القذرة أن تغتال زوجها ... ولكنه كان ينجو كل مرة بطريقة أشبه بالمعجزة! وها هي مهمته أوشكت أن تتم، فهل تتركه أصابع الخيانة والحقد لكي يعود إلى وطنه ظافرًا؟

أحكم المهندس «حلمي» سُتْرتَه الثقيلة حول كتفَيه، واحتضن طفلَيه في وداع أخير قبل أن يغادر مسكنه متجهًا إلى الميناء مع حرَّاسِه الثلاثة.

كان يبدو واثقًا مطمئنًا ... ولكنَّ شعورًا مخيفًا داهم زوجته ... إحساس بالخطر كان يطوقها ويكاد يُزهق أنفاسها.

كانت حاستها السادسة تعمل بقوة ... ولم يحدث أن خانتها من قبل ... وأحسَّت أن زوجها في خطر داهم ... فانفجرت في بكاء مرير!

انطلقَت السيارة الدبلوماسية المصفحة تجاه الميناء وقد جلس المهندس «حلمي» في مقعدها الخلفي وهو يراجع ملفات الشحن ... كان يبدو هادئًا متماسكًا بعكس حراسه القلقين، وقد راحت عيونهم تلتهم الطريق في تأهب، وأيديهم تلامس أزندة أسلحتهم لاستعمالها في أية لحظة.

كان الطريق ملبدًا بضباب خفيف لا يُتيح الرؤية لمسافة بعيدة ... وقد بدأت الأمطار تتساقط صانعة حجابًا وسترًا يعوق الرؤية الجيدة، مما ضاعف من توتُّر الحراس، كأنما القدر يعاندهم ويصعِّب من مهمتهم.

وألقى المهندس «حلمي» نظرة إلى ساعته والسيارة تشقُّ طريقها تحت الأمطار والضباب ...

تبقَّت خمس دقائق فقط ويصل إلى الميناء ... بعدها تنتهي ساعات القلق والتوتر التي عاشها خلال أسابيع طويلة في تلك العاصمة الأوروبية الحافلة بأصناف شتى من المجرمين والأوغاد والقتلة المحترفين ... والجواسيس!

لكن لا شيء كان يمكن أن يُعيقَه عن مهمته التي أقسم على إتمامها مهما كان الثمن.

ولاح الميناء من بعيد أخيرًا ... ترسو إلى أرصفته أعدادٌ كبيرة من السفن مختلفة الأحجام والأنواع.

ولكن أعين الحراس أخذت تفحص كلَّ شبر ... فخلف كل ركن ووراء كل زاوية يمكن أن تنطلق رصاصة واحدة لتؤديَ المهمة القذرة.

وكان من الضروري أن يعود «حلمي» إلى بلاده سالمًا ... فبدونه يستحيل أن يتمَّ المشروع الذي بدأته بلادُه لتطوير قدرتها النووية. رصاصة واحدة كانت كفيلةً بإجهاض أحلام وآمال دولة لا تسعى إلا لحماية نفسها من العدوان ... لا للشر والدمار.

ومما زاد العبء على رجال الحراسة الثلاثة أن المهندس «حلمي» كان يرفض ارتداء السترة الواقية من الرصاص، وكانت إجابته الهادئة أن العمر واحد والرب واحد ... ثم بماذا تفيد سترة الرصاص إذا كان الهدف رأسه؟!

توقفت السيارة المصفحة أخيرًا في موقف الانتظار أمام الميناء ... وقفز الحراس الثلاثة المدججون بالسلاح ليكونوا ساترًا لرفيقهم ... وأحاطوا به من الخلف والجانبَين وأعينهم كعينَي الصقر.

كانت المسافة قصيرة إلى السفينة الراسية في مدخل الميناء ... وعَلَمها يرفرف فوق ساريتها بألوانه المميزة والنسر الذي يتوسط ألوانها الثلاثة ... «علم مصر»!

وفوق السفينة كانت ثمة استعدادات تُجرَى للإقلاع المباشر مهما كانت حالة الطقس سيئة ... ولكن الرزاز الخفيف والرياح الباردة لم تكن أسوأ ما يشهده ذلك الميناء الأوروبي ... وقد وقف ربان السفينة وقبطانها على الرصيف في انتظار وصول ضيفه.

ومدَّ المهندس «حلمي» يدَه مصافحًا، فشدَّ القبطان على يده في قوة هامسًا: حمدًا لله على سلامتك ... إننا مستعدون للإقلاع حالًا.

أجابه «حلمي» في هدوء: على بركة الله.

وخطَا الاثنان وخلفهما الحراس الثلاثة صاعدين إلى السفينة المصرية ... وأصدر الربان تعليماته ... وفي الحال رفعت المرساة الكبيرة ... ثم شرعت السفينة تتهادَى إلى عرض البحر.

والتقط الحراس الثلاثة أنفاسهم في ارتياح أخير ... وكأنهم لا يصدقون أن مهمتهم قد انتهت على خير ولم يواجهوا أيَّ خطر.

كان الأمان في البحر ... ووسط عشرين من عمال ومهندسي السفينة ... الذين كان نصفهم من المقاتلين المهرة المختصين بمثل تلك المهام ... والذين على استعداد للعمل والقتال في اللحظة المناسبة.

ولكن ... وعلى أطراف الميناء كان يجري مشهد آخر.

كان ثمة نظارة مقربة قد وجهت عدساتها إلى السفينة التي تبتعد كثيرًا ... وقد راح صاحب النظارة يراقب ما يجري على سطح السفينة في صمت وتقطيب ... وأخيرًا أزاح النظارة عن عينَيه الرماديتَين وقد تجلَّت فيهما نظرة قاسية ... شريرة!

والتقط صاحب النظارة جهازًا لاسلكيًّا صغيرًا تحدَّث خلاله ببضع كلمات قليلة ... كانت كلماته موجزة ولكنها حاسمة باترة في أمر لا يحتمل أيَّ تأجيل.

وهكذا بدأت المهمة ... المهمة القذرة!

تساءل المهندس «حلمي» وهو يُثبت نظارته فوق عينيه: هل تم تخزين الصناديق بالطريقة التي طلبتُها؟

أجابه الربان: يمكنك أن تتفقد الصناديق بنفسك. وهبطَا إلى قلب السفينة وعبرَا ممرًّا قصيرًا انتهى بمخزن عريض يفتح إلكترونيًّا ... وعندما انزاحَت أبوابُه الفولاذية ظهر خلفها عددٌ من الصناديق النحاسية السميكة التي رُصَّت بطريقة معينة تُتيح لها أقصى معامل الأمان وعدم الاحتكاك فيما بينها، وقد كُتبت عبارة واحدة فوق كلِّ الصناديق: «مواد خطرة».

هزَّ «حلمي» رأسه في ارتياح قائلًا: هذا جيد!

وأكمل في تثاؤب: إنني بحاجة إلى نوم عميق، فمنذ أيام طويلة لم أَذُق طعمًا للنوم.

أجابه الربان: تستطيع أن تحصل على كفايتك من النوم هنا ... ويمكنك ألَّا تستيقظ إلا بعد وصولنا إلى «الإسكندرية».

ابتسم «حلمي» قائلًا: لكَم اشتقتُ إلى «الإسكندرية» ... وإلى قريتي الصغيرة في «المنصورة» ... وإلى كل شبر في «مصر».

تساءل الربان: وزوجتك وأطفالك ... هل سيلحقون بك إلى «مصر» قريبًا؟

أجابه «حلمي»: هناك مقاعدُ محجوزةٌ لهم في الطائرة المغادرة إلى «القاهرة» هذا المساء. لكَم تمنيتُ أن يسافروا قبلي لأطمئنَّ عليهم ... ولكنني لم أجد لهم أماكنَ قبل هذا المساء.

والتفت إلى الربان مضيفًا: إنني لم أسألهم أن يصاحبوني هذه الرحلة أيضًا.

تساءل الربان في صوت عميق: هل تتوقع أن نتعرض لخطر ما ونحن في عرض البحر؟

حدَّق فيه «حلمي» للحظة، ثم أجاب مغمغمًا: إن كلَّ شيء جائز.

وقد كان على حقٍّ! فما كاد يغادر مخزن البضائع متجهًا إلى قمرته، حتى شاهد أحد حراسه مهرولًا وهو يصيح في غضب: هناك زوارق حربية تُحيط بنا من كل جانب ... وهم يطلبون منَّا في اللاسلكي التوقف عن الإبحار!

هتف الربان في دهشة: ماذا تقول؟!

واندفع صاعدًا لسطح السفينة والمهندس «حلمي» في أثره ... كان هناك ما يزيد على ستة زوارق حربية حكومية لخفر السواحل تُحيط بالسفينة من الخلف والجانبَين، وحلَّقت طائرة هليكوبتر حربية بأعلى، وعلا صوت من ميكروفون بداخلها يقول: توقَّفوا عن الإبحار ... هذا أمرٌ وإلا أطلقنا عليكم النار!

التفت الربان إلى رجاله صائحًا: أوقفوا محركات السفينة في الحال.

اعترض أحد الحراس في توتر قائلًا: إنه فخ ... أشعر أنه فخ ... لماذا يريدون إيقاف السفينة في عرض البحر؟!

أجابه الربان في هدوء: إنها قوات حكومية كما ترى، وهم ليسوا من أصحاب الأصابع القذرة، ومن حقهم إيقافنا لأي سبب ما دمنا لم نغادر المياه الدولية، كما أننا لا نخشى شيئًا، أما عدم انصياعنا للأوامر فقد يُساء فهمُه ويُعرِّضنا لمخاطر نحن في غنًى عنها.

توقفت محركات السفينة وقد أحاطَت بها الزوارق الحربية، واندفع عشرات الجنود المسلحين بالبنادق ورجال العمليات الخاصة شاهرين أسلحتهم.

وهبطت الطائرة الهليكوبتر فوق مقدمة السفينة، وغادرها ضابط برتبة كبيرة ... وتقدَّم نحو الربان الذي حدَّق فيه بنظرة مندهشة قائلًا: الجنرال «مولوثوف» قائد حراس السواحل ... لا شك أن الأمر بالغ الأهمية استدعى وجودك يا سيدي فوق سفينتنا.

حدق فيه الجنرال بنظرة باردة وأجاب: هذا صحيح تمامًا!

وأشار لرجاله قائلًا: فتشوا السفينة.

فاندفع الجنود لتفتيش السفينة، والتفت الربان محتجًّا للكولونيل: إننا لا نحمل أي شحنة ممنوعة، لماذا تقومون بتفتيش سفينتنا؟!

أجابه الجنرال بنفس اللهجة الباردة: ستعرف حالًا.

والتفت إلى «حلمي» مضيفًا: هل أنت صاحب الشحنة التي تحملها هذه السفينة؟

أجابه «حلمي»: هذا صحيح ... إن أوراق الشحن باسمي! وأوراق الشحن كلها سليمة وعليها أختام رجال الجمارك ومسئولي الميناء.

غمغم الجنرال: سنرى حالًا.

واندفع بعض الجنود يحملون أحد الصناديق التي كانت بالمخزن وصاح أحدهم: هذا الصندوق عليه ما تحمله السفينة.

أشار الجنرال إلى الربان قائلًا: افتح هذا الصندوق.

أجابه «حلمي»: ليس هناك ما نخفيه من مواد غير مشروعة داخل هذه الصناديق يا سيدي، وسأثبت لك ذلك حالًا.

وأخرج من جيبه مفتاحًا خاصًّا دسَّه في فتحةِ قفلٍ بركن الصندوق وأداره ثم أزاح غطاء الصندوق ... وحدق الجنرال في محتويات الصندوق بنظرة ضيقة، ثم انحنى يتفحصها، والتفت إلى «حلمي» قائلًا في لهجة ساخرة ... هذه هي ألياف الكربون ... أليس كذلك؟!

أجاب «حلمي»: هذا صحيح ... وهي مواد ليس ممنوعًا تصديرها ومعنا الموافقات اللازمة من سلطات بلادك على استيرادها.

قال الجنرال: لقد أُلغيت هذه الموافقة ... وتم اعتبار هذه المواد من المواد الممنوعة من التصدير ... ومحظور التعامل فيها ... فهي مواد خطرة ... خطرة جدًّا ... لأنها تُستخدم في صناعة رءوس الصواريخ النووية ... أليس كذلك يا عزيزي؟!

تلاقَت عينَا المهندس «حلمي» والربان في دهشة بالغة ... ولكنهما أفاقَا على صوت الكولونيل وهو يُشير لرجاله قائلًا: اقبضوا على هذا الرجل.

فاندفع الجنود يحيطون بالمهندس «حلمي» شاهرين أسلحتهم، فصاح بهم غاضبًا بأية تهمة تُلقون القبض عليَّ؟!

أجابه الجنرال «مولوثوف» بابتسامة ذئب: إن تهمتك يا عزيزي هي تصدير مواد حربية محظور تصديرها ... وهذه التهمة عقابها السجن المؤبد!

وأضاف في لهجة ساخرة: وهناك تهمة أخرى عقوبتها هي الإعدام ... وهي تهمة التجسس.

تحالف الذئاب!

كانت المعلومات التي حصل عليها الشياطين مذهلة، لدرجة أن «إلهام» هتفت في عدم تصديق: مستحيل أن تكون كلُّ هذه الأحداث قد جرَت في إحدى عواصم «أوروبا» وهي معقل الديمقراطية والحرية في العالم!

أجابها رقم «صفر» من مكانه الخفي: طالما ظلت النقود قادرة على أن تشتريَ ذمم وضمائر البعض، فإن الشر لن يختفيَ من العالم ... إن المهندس «حلمي عبد القادر» هو ضحية دون شك ... فتهمةُ تهريب مواد حربية ممنوعة هي تهمة ملفَّقة قُصد بها إلقاء القبض عليه ومنع تلك المواد من الوصول إلى «مصر» ... أما تهمة الجاسوسية فالغرض منها هي التخلص منه ... بإعدامه!

عثمان: هؤلاء الأوغاد الخونة!

وتساءل «أحمد» في هدوء: ولكن مَن يقف وراء هذه العملية؟!

رقم «صفر»: إن أصابع الاتهام تُشير إلى «الموساد» دون شك ... فهي التي حاولَت اغتيال «حلمي» من قبل وتصفيته بأي ثمن ... تمامًا كما فعلَت مع د. «سميرة موسى» في الخمسينيات، وكانت عالمة ذرة شهيرة تدرس في أمريكا، وتم تدبير حادث سيارة لها، وأيضًا د. «يحيى المشد» منذ سنوات قليلة؛ حيث تم اغتياله في أحد فنادق «باريس»... وهو من أعظم علماء الذرة العرب ... ولكن، ولأن الموساد تتعامل بحذر وذكاء، وبعد فشلها في اغتيال المهندس «حلمي»؛ لذلك دبرت له تلك التهمة، وببعض الرشاوى أمكنها إقناع البعض بالقبض على «حلمي» وتوجيه تلك التُّهم إليه.

هدى: ولكن بإمكان المهندس «حلمي» الحصول على البراءة عند محاكمته ... فالجاسوسية بالذات تهمة خطيرة تستلزم أدلة كافية لإدانة مَن يمارسها.

رقم «صفر»: ومَن قال إن الموساد لم تجهز هذه الأدلة مسبقًا ... فهي جهاز مخابرات نشط وقوي وفي حوزتها إمكانات هائلة بحيث تستطيع تزوير عشرات الأدلة ضد أي شخص ... ولكن الموساد تنوي اتباع خطة مختلفة هذه المرة!

وساد صمت قصير بعد كلمات رقم «صفر» ثم أضاف: إنهم يخططون لاغتيال المهندس «حلمي» في السجن ... بحيث تحين نهايته ... قبل أن تبدأ محاكمته.

قال «خالد»: هؤلاء الأشرار!

رقم «صفر»: إنهم يخشون أن تكشف أقوالُ المهندس «حلمي» تورُّطَهم في الأمر أثناء المحاكمة ... ولهذا فهم يقومون بقتل المهندس «حلمي» قتلًا بطيئًا كل يوم ... من خلال تعريضه لجرعات قليلة من السم في طعامه تتسبَّب في تدهور صحته ببطء شديد ... وخلال شهر على الأكثر تتوقف أعضاؤه الحيوية عن العمل ويسقط ميتًا ... وبالطبع لن يتمكن أحدٌ باكتشاف سبب الوفاة الحقيقي إذا ما دُفعت الرشاوى المناسبة لطبيب السجن لكي يذكرَ في تقريره أن وفاة المهندس «حلمي» كانت طبيعية؛ فقد مر أسبوعان حتى الآن على بدء ذلك المخطط الجهنمي ... ويبقى لبطلنا أسبوعان فقط على قيد الحياة!

قطب «أحمد» حاجبَيه في غضب قائلًا: من الضروري الإسراع بإنقاذ المهندس «حلمي» بأسرع ما يمكن ... مهما كانت النتائج!

قال رقم «صفر»: هذا صحيح؛ فإن أية دولة لن تعترف بتلفيق التُّهم وسجن الأبرياء ... خاصة إذا كانت تتظاهر بالصداقة لبلادنا ... وللمنطقة العربية بأكملها.

قالت «زبيدة» في حدة: إذن لا يتبقَّى أمامنا غير اللجوء إلى الوسائل الأخرى ... لاستعادة هذا البطل من قبضة الأشرار!

قال رقم «صفر»: بالضبط ... ولهذا كان اجتماعنا ... فأنتم الورقة الأخيرة والوحيدة ... التي نراهن بها على كسب هذه المعركة ... وحتى رجال المخابرات ما كانوا يستطيعون التدخل لإنقاذ المهندس «حلمي»، لأنه في حالة سقوط أحدهم في أيدي هؤلاء الزبانية، فيسدعمون به قضيتهم ضد المهندس «حلمي» باعتباره جاسوسًا ... ليصير الحكم بإعدامه مؤكدًا ... سواء بالسم أو رميًا بالرصاص.

قال «قيس»: وهل نقلَت الموساد المهندس «حلمي» إلى بلادها؟

رقم «صفر»: لا ... إنهم ليسوا من الغباء ليفعلوا ذلك؛ فهم لا يريدون الظهور في الصورة بأي شكل ... ولكنهم وضعوا خطة أخرى لنقل «حلمي» إلى أحد السجون الخاصة ليكون تحت أعينهم وسيطرتهم.

والتفت رقم «صفر» إلى الخلف وهو يضغط زرًّا إلى جواره، فأضيئَت شاشة سينمائية عريضة إلى اليسار ارتسمَت فوقها خريطةٌ لجنوب «إيطاليا».

بدأت الصورة تكبر تدريجيًّا مبيِّنة تفاصيل جزيرة «صقلية» وما يتبعها من جزر ... وارتسمَت دائرة حمراء حول جزيرة «أوستيكا» على مسافة مائة كيلومتر من «باليرمو» عاصمة «صقلية».

وتعلَّقت أعين الشياطين بالجزيرة الصغيرة التي لا تزيد مساحتها عن عشرة كيلومترات وتُحيطها الصخور من كل جانب.

وقال رقم «صفر»: هذه هي الجزيرة السجن ... «أوستيكا».

قال «أحمد» في دهشة: ولكن هذه الجزيرة تابعة للمافيا الإيطالية! ... إنهم هم الذين يحكمون هذه الجزيرة الإيطالية لقربها من «صقلية» موطن نشأتهم ... وقد أقاموا فيها سجنًا رهيبًا من الصخر والفولاذ يستحيل اختراقه، بالإضافة إلى الأسماك المتوحشة التي تعجُّ بها شواطئ الجزيرة ... وهم لا يُرسلون إلى هذا السجن إلا كلَّ مَن يريدون التخلص منه بالسجن مدى الحياة ... أو إطلاق كلاب السجن المتوحشة عليه لتنهشَه حيًّا!

قال رقم «صفر»: إن كل ما ذكرته صحيح يا «أحمد» ... فهذا السجن أنشأَته المافيا للتخلص من بعض أعدائها بتلفيق التُّهم لهم أمام المحاكم الإيطالية؛ لكي يصدر الحكم بسجنهم داخل هذا السجن الذي تسيطر عليه الحكومة الإيطالية ظاهريًّا، ولكنه في حقيقة الأمر يخضع لقبضة وأوامر المافيا مباشرة ... ولم يحدث أن دخله أيُّ شخص ... وخرج منه حيًّا!

اتسعَت عينَا «إلهام» في دهشة بالغة، وقالت: ولكني لا أفهم ما هي علاقة المافيا بالموساد؟!

رقم «صفر»: إنها قوى الشر في العالم وقد تحالفَت معًا ... فما أكثر العمليات التي قامت بها المافيا لحساب الموساد أو العكس! ... فالمصالح بينهما متبادلة والهدف واحد؛ فالتعاون بين الموساد والمافيا أشبه بتحالف الأوغاد ... ولهذا ليس عجيبًا أن قامَت الدولة الأوروبية التي ألقَت القبض على «حلمي» بترحيله إلى «إيطاليا» حسب أوامر الموساد؛ حيث تم تزوير تهمة جديدة ضد «حلمي» باختراق القوانين الإيطالية ليصدر قرارٌ من القاضي بحبسه في سجن «أوستيكا» انتظارًا لمحاكمته ... وبذلك تكون الموساد قد حققت هدفها كاملًا.

غمغم «بو عمير» في دهشة: هؤلاء الشياطين ... أي عقل جهنمي يملكون؟!

أجابه «قيس»: مهما كانت براعة عقول الأشرار فلن نترك لهم الساحة خالية يملئونها شرًّا وجريمة ... ولا بديل أمامنا غير إنقاذ المهندس «حلمي» مهما كان الثمن!

قال رقم «صفر» في هدوء: بالضبط ... هذه هي مهمتكم القادمة ... فعلينا أن نُثبت للموساد أننا قادرون على حماية أرضنا ومواطنينا ... وأن ضربتهم سترتدُّ إليهم.

تساءل «خالد» في قلق: ولكن هل صودرت شحنة الألياف الكربونية؟!

قال رقم «صفر»: نعم ... وإن كنا قد تعاقدنا على شحنة غيرها ستصلنا في أقرب وقت.

قالت «إلهام»: وعائلة المهندس «حلمي» ... هل عادت إلى «مصر»؟!

قال رقم «صفر»: هذا صحيح أيضًا، فبعد أن وقع ربُّ العائلة في قبضة الموساد، لم يَعُد يهمُّها أمر الزوجة والأطفال ... وإن كانت حالتهم النفسية في غاية السوء!

قالت «هدى»: سوف يعود المهندس «حلمي» إلى أسرته الصغيرة قريبًا بإذن الله.

قال رقم «صفر»: سوف تغادر مجموعة منكم مكوَّنة من خمسة، هم «أحمد» و«إلهام» و«عثمان» و«هدى» و«قيس» إلى «صقلية» في طائرة المساء ... وهناك ستجدون كل الإمكانات متوفرة لكم في عمليتكم، وسيقدم لكم عميلنا الأول في روما رقم «٧٧» كلَّ التسهيلات والأسلحة اللازمة ... ولديكم كافة الصلاحيات في هذه المهمة.

نهض «أحمد» وهو يقول: ثِق أننا سنؤدي هذه المهمة على خير وجه يا سيدي ... وسنعود سالمين بإذن الله لكي نحتفلَ بانتصارنا معًا.

مفاجأة غير متوقعة!

غادر الشياطين الخمسة مطار «باليرمو» عاصمة «صقلية» الذي أحاطَت به الجبال والمرتفعات من كل جانب كأنها تؤكد على طبيعة سكان الجزيرة الخشنة الدموية!

وكانت كلُّ الوجوه حولهم تبدو عليها الخشونة، وتطل منها النظرات الحادة ... وتساءلت «إلهام» وهي تخطو خارج المطار: تُرى كيف سنصل إلى رقم «٧٧» في هذه الجزيرة؟

أجابها «عثمان» باسمًا: سوف يسعى هو إلى التعرف علينا ككل مرة.

قالت «هدى» وهي تنظر حولها: أرجو ألَّا يكونَ وجودُنا لافتًا للنظر في هذه البلاد؛ فإن خمسة وجوه عربية معًا في مثل هذه الجزيرة لا بد أن يكون أمرًا لافتًا للنظر.

قال «أحمد»: معكِ حقٌّ يا «هدى» ... ولعل هناك أعينًا تُتابعنا عن قرب؛ ولذلك علينا أن نتصرف بحذر ... وأشار إلى أقرب تاكسي إليه، فهبط سائقه ... وكانت فتاةً في حوالي الخامسة والعشرين ذات ملامح قمحية جذابة، تبدو عليها صلابة وخشونة أهل الجزيرة، ورفعَت قبعتَها في تحية خاصة وهي تقول بالإيطالية: مرحبًا بكم في جزيرتنا الرائعة!

كان أغلب الشياطين يُجيدون الحديث بالإيطالية، ولكن «إلهام» تظاهرت بجهلها بتلك اللغة، وأجابت السائقة بالإنجليزية: نحن لا نعرف الإيطالية ... هل يمكنك أن تأخذينا إلى أقرب فندق؟

أجابت السائقة باسمةً: لحسن الحظ أنني أُجيد الإنجليزية ... هيَّا بنا.

واستقل الشياطين التاكسي الذي اخترق بهم شوارع العاصمة «الصقلية» إلى أطرافها، حيث يقع فندق هادئ صغير تُحيط به حدائق واسعة متسعة. وأوقفَت السائقة سيارتها وهي تقول: لا شك أنكم ستجدون الإقامة ممتعة في هذا الفندق!

غمغمت «هدى» مجيبة: هذا ما نرجوه.

كان الفندق هادئًا مريحًا بالفعل، وبعد أن اغتسل الشياطين من عناء السفر وتناولوا غداء خفيفًا بعده أصبحوا متأهبين للعمل ... وقبل أن يبدأ اجتماعهم في غرفة «إلهام» و«هدى»، أخذ «أحمد» يفحص أركان الحجرة وكل أجزائها تحسُّبًا لوجود أجهزة تنصُّت ... ولكن الحجرة كانت خالية.

قال «عثمان»: من العجيب أن فندقًا في جزيرة المافيا يخلو من أجهزة التنصت!

إلهام: لقد أحسنَت سائقة التاكسي اختيار هذا الفندق!

قيس: إننا بحاجة إلى أن نبدأ العمل.

هدى: للأسف لن نستطيع أن نتخذ أية خطوة قبل أن نقابل رقم «٧٧»، فلا شك أن لديه بعضَ المعلومات التي نحتاج إليها لاقتحام السجن ... وأيضًا السلاح.

نهض «أحمد» قائلًا: إذن فلنؤجل الحديث إلى المساء ... وأعتقد الآن أن كلَّ ما يلزمنا هو جولة سياحية في هذه الجزيرة.

وكانت أمامهم مفاجأة ... أن وجدوا سائقة التاكسي جالسةً في صالة الفندق تحتسي مشروبًا باردًا، وعندما وقع بصرُها عليهم قالت باسمة: لقد خمنتُ أنكم ربما تحتاجون إلى جولة سياحية في المدينة، ولم يُخطئ حدْسي!

تبادل الشياطين النظرات في صمت ... وبلغة العيون قال «أحمد» للباقين: هناك شكٌّ لديَّ أن هذه الفتاة ربما كانت تعمل لدى المافيا ... وأنها مخصصة لمراقبتنا ... وعلينا مسايرتها.

وأشار إلى سائقة التاكسي قائلًا: حسنًا ... فلنبدأ جولتنا.

كانت السائقة ماهرة في القيادة ودليلة سياحية ممتازة أيضًا وهي تجوب أنحاء المدينة القديمة وتشرح تاريخها، وقد توالى على حكمها القرطاجيون والرومانيون والبيزنطيون والنورمانديون الذين جعلوا منها عاصمة لمملكة «صقلية» ... وكيف أن هذه المدينة تشتهر بمينائها الكبير وأحواض بناء السفن وصناعة الصلب والكيماويات والأثاث.

كانت سائقة التاكسي الحسناء منطلقة في حديثها عمَّا تشتهر به المدينة عندما قاطعها «قيس» قائلًا: نسيتِ أن تُخبرينا بشيء هام تشتهر به هذه المدينة ... إنها المافيا!

ألقت الفتاة الإيطالية نظرة إلى الشياطين في المرآة، وقالت في صوت عميق بارد: لا أظنكم في حاجة إلى مَن يخبركم عن ذلك!

ترامق الشياطين مرة أخرى وقد زادَت شكوكهم ... وقالت بالإيطالية وهي تُلقي ببصرها بعيدًا: إن تاريخ المافيا في هذه الجزيرة قديم وعتيد ... وهم حكامها الحقيقيون

... ولا شيء يحدث فوق أرضها دون أن يكونوا على علم به ... وحتى ما يفكر فيه سكان هذه الجزيرة، يكاد يكون المافيا على علم به.

تبادل الشياطين النظرات مرة أخرى ... وبدا الأمر كأنه رسالة تحذير إليهم.

وانحدرَت الفتاة الإيطالية بسيارتها نحو ركن منعزل إلى شاطئ البحر وغادرَت سيارتها وهي تقول للشياطين: هيَّا ... سأُريكم شيئًا!

فتَبِعها الشياطين وأشارت «إلهام» لزملائها أن يتأهبوا لأية مفاجأة ... حيث كانوا لا يحملون أية أسلحة للدفاع عن أنفسهم في حالة ظهور أي شيء.

وأخذت الإيطالية تقفز فوق الصخور الحادة في مهارة حتى توقَّفَت على حافة المياه أمام فتحة عميقة في الصخور تُشبه الكهف، كانت تبدو مظلمة ... ولكن الإيطالية أخرجَت من سُتْرتها كشافًا كهربائيًّا صغيرًا وأسرعَت تتقدَّم به إلى قلب الكهف في صمت. كان الموقف مثيرًا، وتردَّد الشياطين في أن يتبعوا الإيطالية أم لا ... ومعرفة سرِّ تصرفاتها الغريبة ولكنهم حسموا تردُّدَهم وساروا خلفها في حذر.

وانتهى السير بهم بمفاجأة لم تكن تخطر على البال ... ففي الكهف كانت هناك صناديقُ خشبيةٌ مغلقة! مدَّت سائقة التاكسي يدَها لتفتحها وتُخرج من داخلها بنادق ومدافع رشاشة سريعة الطلقات وقنابل يدوية ... كان الكهف يبدو عامرًا بترسانة من الأسلحة، فتبادل الشياطين نظرة دهشة عميقة! وقالت الإيطالية باسمةً باللغة العربية ولهجة مصرية صحيحة: هل تكفي هذه الأسلحة لمهمتكم أم أنكم تحتاجون إلى المزيد؟!

تساءلت «إلهام» في ذهول: هل أنت ...؟!

أجابتها الإيطالية: هذا صحيح ... إنني رقم «٧٧» ... وبرغم أن والدتي إيطالية، إلا أن والدي كان مصريًّا ... وقد قضيتُ طفولةً رائعة في «الإسكندرية» قبل أن أرحل مع أمي إلى موطنها الأصلي في هذه الجزيرة بعد وفاة أبي ... ويمكنكم أن تنادوني بالاسم الذي كان أبي يناديني به ... «علا».

عثمان: لكن ...

علا: إنني مدركة لما تريد أن تسأل عنه أيها الشيطان الأسمر ... فالتحاقي بمؤسسة الشياطين له قصة طويلة ليس مجالها الآن ... وإن كان هذا لا يمنع أنني أعمل مع المافيا أيضًا. هتفت «هدى»: ماذا؟!

أطلقت «علا» ضحكة قصيرة، وقالت: إن الجميع هنا يجب أن يعملوا مع المافيا وإلا كانت نهايتهم؛ ولأن المافيا فوق هذه الجزيرة تراقب أيَّ شخص غريب يصل إليها؛ لذلك

كان طبيعيًّا أن يُرسلوا مَن يراقبكم، وباعتباري أُجيد اللغة العربية تم اختياري لهذه المهمة ... وبالطبع فسوف أذكر في تقاريري أنكم مجردُ بضعة أشخاص جاءوا للسياحة فوق هذه الجزيرة.

أحمد: إنكِ بذلك تضمنين لنا تغطية رائعة يا «علا»!

أجابته رقم «٧٧» باسمة: لهذا اختارني رقم «صفر» ... لأكون عينَه وعونَه فوق هذه الجزيرة، خاصة وإن مهنة قيادة تاكسي سياحي تضمن لي التعرف على كل عملائه الذين يُرسلهم إلى الجزيرة دون أن يشكَّ أحد في شخصيتي الحقيقية.

قالت «هدى»: هذا رائع ... فقد بدأت المهمة بأسرع مما كنَّا نخطِّط!

قالت «إلهام»: ولكننا لا زلنا بحاجة إلى زوارق سريعة تنقلنا إلى جزيرة «أوستيكا» لنؤديَ عملنا هناك.

علا: إن هذه الزوارق موجودة بالفعل داخل بعض هذه الصناديق ... وهي من النوع المطاط الذي يسهل طيُّه ونفخُه وإخفاؤه ... وخلال الليل يستحيل أن يظهر فوق سطح المياه أو ترصده رادارات السجن المثبتة فوق أسواره.

أحمد: هذا رائع! لم يتبقَّ لنا غير دراسة تفاصيل هذا السجن واختيار أضعف أجزائه لاقتحامه من خلالها.

هزَّت «علا» رأسها رافضة، وقالت: إنني لا أنصح بمثل هذه الخطة ... فالسجن محصن ويستحيل اقتحامه أو مباغتة حراسه ... فالهجوم على السجن بمثل هذه الطريقة أشبه بمهمة انتحارية بلا عودة!

تساءلت «إلهام» في قلق: وما العمل إذن؟!

علا: إن لديَّ خطة بديلة ... ولكنها تتطلب شخصًا لديه بعض الدراية بالمهارات ... الطبية ويتحدث بالإيطالية كأهلها.

إلهام: إنني أمتلك هذه المهارات ... فقد تلقيت تدريبًا طبيًّا مكثفًا في مركز الشياطين الطبي ... بل إنني أستطيع تشخيص بعض الأمراض وخياطة الجروح كما أن لغتي الإيطالية ممتازة.

علا: هذا رائع ... فإنه يسهل مهمتنا وخطتنا. ضاقت عينَا «أحمد» وهو يتساءل: ولكنكِ لم تُخبرينا بهذه الخطة التي تتحدثين عنها.

علا: إنها خطة سهلة ولا تتطلب غيرَ شخص واحد في نفس الوقت للقيام بها ... وهي تتلخص في أن يقوم أحد أطباء وزارة الداخلية الإيطالية بزيارة سجن المافيا بحجة فحص

المساجين داخله بعد أن وصلَت للوزارة شكاوى عديدة من منظمات حقوق الإنسان بشأن ما يُلاقيه المساجين من تعذيب داخل هذه السجون.

إلهام: وهذا الطبيب الذي سيزور السجن ... هو أنا، أليس كذلك؟

علا: هذا صحيح، وسوف أزودك بكل ما يلزمك من أوراق تُثبت شخصيتك كطبيبة في وزارة الداخلية الإيطالية ... وبعد دخولك السجن ستُجرين فحصًا لبعض المساجين، وفي النهاية ستأمرين بنقل المهندس «حلمي» خارج السجن إلى أحد مستشفيات العاصمة بحجة خطورة حالته ... وما إن يتم نقله إلى أيِّ مستشفى حتى يكون من السهل علينا تهريبه منها إلى خارج إيطاليا بأكملها.

هدى: إنها خطة رائعة وعبقرية!

أحمد: ولكنها بقدر ما تحمل من بساطة ... بقدر ما تحمل من خطورة للشخص الوحيد الذي سيقوم بها في قلب هذا السجن المخيف!

وتعلَّق بصرُه بـ «إلهام» في قلق وتوتُّر، ولكن «إلهام» قالت في حماس: لن يُثنيَني شيء عن القيام بهذه المهمة ... وأنا مستعدة لتنفيذها حالًا!

قلب الجحيم!

حلَّقت الطائرة الهليكوبتر التي تحمل شعارَ الداخلية الإيطالية فوق أسوار السجن الرهيب ... كان المشهد من أعلى مثيرًا ومقبضًا ... وقد ظهرَت صخور جزيرة «أوستيكا» من أسفل ومياه البحر «التيراني» تضربها في عنف شديد ... وقد أقيمت أسوار السجن الصخرية على أكثر من نصف مساحة السجن يحيط بها من أعلى أسلاكٌ شائكة لم يكن من شك في أنها مكهربة، وبوابات حديدية ضخمة يستحيل اختراقها إلا بالمدرعات الثقيلة. وقد تناثرَت أبنية السجن المقبضة الشكل في كل أركانه، تحيط بها المدرعات الثقيلة يركبها عددٌ من الحراس كأنهم يستعدون بها لإحباط أيِّ تمرد من المساجين وسحقه تحت جنازير مدرعاتهم دون شفقة.

قطَّب «أحمد» حاجبَيه وقد اتخذ مكان قائد الطائرة وهو يقول لـ «إلهام»: إن المكان هنا أسوأ مما توقعتُ ... كأنه ثكنة عسكرية يستحيل على طائرة اختراقها ... وكأنما نخطو إلى قلب الجحيم بأقدامنا!

إلهام: كانت رقم «٧٧» على حقٍّ في رأيها بشأن مخاطرة اقتحامنا لهذا السجن ... فقد كنا سنسقط في مصيدة رهيبة يستحيل الخلاص منها ... ولحسن الحظ أنها وفرت لنا هذه الهليكوبتر بعد أن دفعت رشوة لشخص ما في «روما».

وأضافَت بعد لحظة: إنني لا أدري ماذا كنَّا سنفعل في هذه المهمة دون رقم «٧٧»!

أحمد: إن رقم «صفر» يختار دائمًا الأشخاص المناسبين لكل مهمة.

ودار بالطائرة فوق فناء السجن، قبل أن يحصل على الإذن بالهبوط ... وأخيرًا استقرت الطائرة في فناء السجن وقد جاء إليها عشرة حراس مدججين بالسلاح.

وهبطت «إلهام» خارج الطائرة ووقفَت تحدق في الحراس الصامتين، وقالت بلهجة محلية لأبناء الريف الإيطالي: أين قائد هذا السجن؟

ومن الخلف جاءها صوتٌ يقول بلهجة «صقلية»: ما ظننت أنهم سيُرسلون لي امرأة ... على هذا القدر من الحسن والجمال!

التفتَت «إلهام» فوقع بصرُها على قائد السجن ... الكولونيل «فريدريك توسكانيني».

كان وجه الكولونيل يبدو أشد قسوة وفظاظة من الصور التي أطلعَتها عليها رقم «٧٧»، وبوجهه الخشن المليء بالندوب وشاربه الضخم الأسود وحاجبَيه الكثيفَين وعينَيه الواسعتَين الماكرتَين وقد تمنطق بمسدس كبير سريع الطلقات، واحتفظ في يده اليمنى بسوط كبير لم يكن هناك شكٌّ في أنه خاصٌّ بتأديب المساجين على أقل هفوة.

أجابَته «إلهام» في فظاظة: إن هذه الدولة ديمقراطية، والنساء فيها لهن نفس حقوق الرجال ويمكنك أن تشكوَ لرؤسائك فيما بعد أنهم أرسلوا إليك فتاة ... بدلًا من طبيب رجل!

غمغم الكولونيل في دهشة قائلًا: أتتحدثين عن الديمقراطية في هذه البلاد ... فيا لَها من نكتة! ... وأطلق ضحكة عالية خشنة قاسية ... ثم توقف عن الضحك فجأة والتمعَت عيناه بوميض شرير قاسٍ وهو يقول: إن هذا السجن هو مملكتي ولا يمكن لأحد أن يحاسبني عما يجري فيه خاصة إذا كانت امرأة جميلة مثلك.

أجابَته «إلهام» في ثبات قائلة: لا أظنك من الفطنة والذكاء بحيث تعترض على مهمتي ... خاصة وأن هناك عيونًا عديدة بدأت تتنبَّه إلى ما يجري في هذا المكان ... وهي مستعدة للإطاحة بأي رأس كتضحية حتى لا تطيَر رءوسها هي ...

بان التردد في عينَي الكولونيل ... كان من الواضح أن ولاءه الأكبر للمافيا ... ولكنه كان موظفًا حكوميًّا في النهاية ... وكان يعرف مغزى ما قالته «إلهام» جيدًا ... فتحسَّس سوطه بيده وقد زمَّ شفتَيه القاسيتَين، ثم طوح بالسوط في الهواء في فرقعة قوية، والتفت إلى «إلهام» قائلًا: إنني واثق أن تقريرك في النهاية سيكون لصالحي ... فهذا ما يفعله الأشخاص العاقلون ... الذين يرغبون في العيش طويلًا.

ومد يده مضيفًا: إنني لم أطلع على أوراقك بعد.

أخرجَت «إلهام» أوراقها من حقيبتها ومدَّتها إلى الكولونيل الذي تفحصها في صمت، ثم دسَّها في جيبه قائلًا: سوف آمرُ رجالي بأن يعدوا لكِ أفضل حجرة في السجن ... بالقرب من مكتبي.

أجابَته «إلهام» متصنعة الغضب: إنني لم آتِ هنا للاستجمام والراحة ... فهناك مهمة يجب أن أبدأها في الحال.

قال الكولونيل متحدثًا: ولكنكِ ستستغرقين وقتًا على أي حال ... فإن فحص مائة سجين أو أكثر سيتطلب منكِ البقاءَ في ضيافتنا بضعة أيام على الأقل.

كان «أحمد» يراقب المشهد الذي يجري أمامه صامتًا ... وتمنَّى في أعماقه لو أنه حلَّ محلَّ «إلهام» في تلك المهمة ... ولكن خبرته الطبية كانت قليلة جدًّا ... وفي تلك اللحظة ندم على ذلك أشد الندم.

وتنبَّه الكولونيل «فريدريك» إلى نظراتِ «أحمد»، فقال له: لا أظنك تنوي البقاء أيضًا يا عزيزي في ضيافتنا ... فإن هذا السجن لا توجد به غرفُ ضيوف كافية.

أدرك «أحمد» أن الكولونيل يأمره بالرحيل، ولم يستطع الرفض على أي حال، فاتجه إلى طائرته وقبل أن يُديرَ محركها، التفتَت «إلهام» إليه قائلة: عُدْ إليَّ بعد أربعة أيام، وإن كانت هناك أية حالة عاجلة تتطلب علاجًا سريعًا بأحد المستشفيات فسأستدعيك باللاسلكي.

أومأ «أحمد» برأسه مجيبًا بنعم ... وحلَّق بطائرته عاليًا ... واندفع بها في اتجاه العاصمة الإيطالية وهو يشعر أنه ترك قلبه خلفه.

أطلق الكولونيل ضحكة قصيرة، وقال لـ «إلهام»: عن أي مستشفى تتحدثين يا عزيزتي ... إن قواعد السجن لا تسمح بخروج أي سجين منه إلا إلى المقبرة.

أجابَته «إلهام» في صرامة: إن الأوراق التي أحملها معي صريحة وقاطعة ... وأي سجين سأرى أنه في حالة تستدعي لنقله إلى أي مستشفى فسأفعل في الحال.

قال الكولونيل: أملي أنكِ لن تجدي سجينًا في حاجة لنقله إلى المستشفى.

كانت لهجة الكولونيل قاسية وساخرة في آنٍ واحد ... وقد بدَا في ملامحه أنه يعني ما يقوله بالفعل ... وفجأة اندفع أحد الحراس إلى الكولونيل صائحًا: لقد تشاجر أحد الحراس مع أحد السجناء فطعنه الحارس بسكين في ذراعه و ...

قاطعه الكولونيل في صوت بارد قائلًا: إنك تقصد القول بأن السجين هو الذي حاول طعن الحارس، أليس كذلك يا عزيزي؟

غمغم الحارس في قلق قائلًا: تمامًا يا سيدي ... ولكن الحارس قفز بعيدًا فأصاب السجين نفسه!

أشار الكولونيل إلى «إلهام» قائلًا: هيَّا يا عزيزتي فقد جئتِ في الوقت المناسب لتشاهدي بنفسك كيف نعتني بضيوفنا من السجناء.

قاد الحراس «إلهام» إلى حجرة ضيقة قذرة كانت تُستخدم للجراحات البسيطة وقد رقد السجين فوق طاولة خشبية، وراحَت ذراعه تنزف بغزارة من أثر السكين، فقامت

«إلهام» بتطهير الجرح والتفتت إلى الكولونيل قائلة: إنني بحاجة إلى بعض المخدر لخياطة هذا الجرح.

هزَّ الكولونيل كتفيه قائلًا: لا توجد لدينا أية مواد مخدرة لمثل هذه العمليات ... وسجناؤنا معتادون على عدم وجودها ... والآن فلترينا مهارتك في العمل دون مخدر.

وفي صمت قامت «إلهام» بخياطة الجرح والسجين المصاب يعضُّ شفتَيه لشدة الألم ... وأخيرًا هتف الكولونيل: رائع ... إنك جراحة ماهرة!

قطبت «إلهام» حاجبَيها في غضب متسائلة: وماذا تفعلون بالمصابين ممن يحتاجون إلى جراحات كبيرة وحجرة عمليات؟!

أجابها الكولونيل وهو يُشعل سيجارًا كبيرًا: إن طبيب السجن في إجازة دائمًا لسوء الحظ، وهو ما يجعلنا نطلب من هؤلاء المساكين الصلاة إلى الله لكي يشفيَ جراحهم، والمؤسف أن الله لا يستجيب لصلواتهم ويقبض أرواحهم سريعًا!

غمغمت «إلهام» في غضب قائلة: أي مكان بشع هذا؟! ... إنه أشبه بسجون العصور الوسطى!

واستدارَت إلى الكولونيل مضيفة: إنني أريد بدء مهمتي في الحال لأغادر هذا المكان بأسرع ما يمكنني.

الكولونيل: إنني رهن إشارتك يا سيدتي ... فإذا أردتِ فحصَ كلِّ المساجين فلا بأس ... فهل تحبِّين أن تبدئي بأقدم المساجين أم أحدثهم؟

كانت لهجة الكولونيل تبدو ماكرة، وأحسَّت «إلهام» بأنه ينصب لها فخًّا، فأجابته بعد لحظة: من الأفضل أن أبدأ بأقدم المساجين.

واستدارَت تغادر الحجرة الكئيبة وعينَا الكولونيل تتفرسان فيها من الخلف في شك عظيم!

ومال على أحد جنوده يهمس إليه بكلمات سريعة وحاسمة لم تَصِل إلى أُذُني «إلهام» ... وقد ارتسمَت فوق وجهه ابتسامةٌ قاسية وحشية ... ابتسامة ذئب يستحيل خداعه.

في قبضة الكولونيل!

كان يومًا عصيبًا إلى أقصى حد بالنسبة لـ «إلهام» ... وقد راحَت تفحص ما يزيد عن ثلاثين سجينًا كانوا جميعًا يعانون من شتى الأمراض ولكن حالاتهم لم تكن خطيرة.

وقرابة العاشرة مساءً اقتحم الكولونيل حجرة الكشف ووقف يحدق في «إلهام» لحظة وهي تفحص أحد المساجين ثم قال لها: هل أنتِ معتادة على العمل حتى منتصف الليل؟!

أجابَته «إلهام» في إرهاق: تبقَّت حالة واحدة سأفحصها الليلة، وسأؤجل الباقين إلى الغد. تساءل الكولونيل بعينين ضيقتين: هل تعنين السجين المصري ... إن اسمه هو التالي في قائمة المساجين؟!

دق قلب «إلهام» سريعًا وأدركَت أنها صارت قاب قوسين من هدفها، وتظاهرت بعدم الاهتمام وهي تقول: إنني لم أقصد سجينًا معينًا، ولم أطلع حتى على كشوف المساجين، ولا يعنيني إن كان السجين التالي مصريًّا أو هنديًّا.

وأشارَت بيدها للحارس الواقف على باب الحجرة، فدفع بالسجين التالي إلى الداخل.

كان هو ... المهندس «حلمي» ... وكادت «إلهام» تشهق عندما وقع بصرُها على السجين المصري ... كان في حالة يُرثَى لها وقد ظهرَت آثارُ تعذيب وحشية أدمَت وجهه وذراعيه حتى كاد يتحول إلى هيكل عظمي ... وترنَّح «حلمي» ثم تهاوَى على الأرض فاندفعَت «إلهام» إليه ... وأخذَت تقيس نبضه وضغطه.

كان نبضُه ضعيفًا تصدر عنه أصواتٌ مختلطة، وقد راح يشهق بشدة ممسكًا بصدره في ألمٍ حادٍّ ... ولم تكن «إلهام» في حاجة إلى خبرة كبيرة لتكتشف ما يعاني منه «حلمي».

كان مصابًا بأزمة قلبية حادة، فالتفتت إلى الكولونيل بوجه شاحب هاتفة: إن هذا السجين في حاجة لنقله إلى المستشفى فورًا؛ فهو مصاب بأزمة قلبية، إذا لم يتلقَّ العلاج المناسب فقد لا تُشرق عليه شمس الصباح!

التمعَت عينَا الكولونيل في بريق وحشي، فقال: هذا رائع وأفضل مما كنَّا ندخره له من نهاية!

تساءلت «إلهام» في غضب: ماذا تعني أيها الكولونيل؟!

أجابها مدير السجن وهو يتفحصها بعينَيه الماكرتَين: لا تشغلي نفسَكِ بأمر هذا السجين يا عزيزتي ... ولتنعمي بنوم هانئ إلى الصباح ... فقد أعددنا لك فراشًا وثيرًا.

فتحَت «إلهام» حقيبتها في عنف، وأخرجَت جهازًا لاسلكيًّا صغيرًا وهي تقول للكولونيل غاضبة: إنني سوف أستدعي قائد الهليكوبتر لنقل هذا السجين إلى أقرب مستشفى و...

ولكن الكولونيل «فريدريك» انتزع جهاز اللاسلكي من قبضة «إلهام»، وتفحصه في مكر قائلًا: إنه جهاز شائع الاستعمال ... بالنسبة لمن يعملون في خدمة الحكومة الإيطالية على الأقل.

دقَّ قلب «إلهام» في عنف، وأضاف الكولونيل: كما أن اهتمامك البالغ بهذا السجين المصري يُقلقني بشدة ... وأنا عادة لا أحب ترك الأمور التي تُقلقني معلقةً وأميل إلى حسمها سريعًا!

غمغمت «إلهام»: ماذا تقصد بقولك هذا؟! ... إن المهندس «حلمي» ليس أكثرَ من مجرد سجين مريض بالنسبة لي و...

ثم توقَّفت عن الحديث وعضَّت شفتَيها ندمًا ... فقد تنبَّهَت متأخرةً إلى خطأ ما ... ولم يكن الكولونيل من الغباء بحيث لا يتنبه إلى نفس الخطأ، فقال لها في مكر: كيف أمكنك معرفة اسم السجين وعمله ... دون أن يُخبرَك أحد بذلك؟!

أدركَت «إلهام» أن أمرها انكشف ... ولم يكن هناك سبيلٌ للإنكار ... ولمحَت الحراس الذين أشهروا أسلحتَهم في وجهها دون انتظار إشارة رئيسهم.

وأطلق الكولونيل ضحكة ساخرة وهو يقول: لقد اكتشفتُ حقيقتَكِ منذ أكثر من ساعتين يا عزيزتي.

فقد التقطت كاميراتنا السرية عدة صور لك وأرسلنا بها إلى أصدقائنا في مكان ما نسألهم عن هويتك الحقيقية، وجاءنا الردُّ سريعًا ... ولكن اللعبة أعجبتني فتركتُكِ تمارسينها ... ولا أنكر أنك أبديت براعة لا يُستهان بها ... أليس كذلك يا «إلهام»؟!

تراجعت «إلهام» للخلف ... ولكن ... ولم يكن وراءها غير الحائط والصمت وهي لا تملك أيَّ سلاح.

وواصل الكولونيل حديثَه وهو يتقدم تجاهها قائلًا: لم أُنكر أن خطتك كانت بارعة ... ولكن بطبعي تأخذني الريبة من الغرباء ... خاصة إذا كانوا من الأشخاص الواثقين

من أنفسهم ... أكثر من اللازم. ومدَّ يده نحو «إلهام»، فهتفَت قائلة: لو أنك حاولتَ لمسي لقتلتُك أيها الوغد. أطلق الكولونيل ضحكة وهو يقول: وبأي شيء ستقتلينني أيتها القطة المشاكسة؟! ... بأظافرك؟!

وامتدت يداه نحو «إلهام» فصرخَت فيه: فلتجرب هذه الأظافر أيها القذر.

ومزَّقَت بأظافرها وجنتَي الكولونيل، وصرخ من الألم الشديد، وقد صنعَت أظافر «إلهام» خطوطًا دموية في وجهه ... واندفع الحراس المسلحون نحو «إلهام» وأيديهم تستعد للضغط فوق أزندة مدافعهم الرشاشة ... ولكن قبضة «إلهام» امتدت إلى أقربهم فأسقطَته، وطارَت قدمُها لتُصيبَ آخر ... واختطفت مدفع غريمها الرشاش ولكن وقبل أن تتمكن من استخدامه هوى شيءٌ ثقيل فوق رأسها من الخلف.

كان مسدس الكولونيل قد أصاب رأسها فأسال دماءَها وجعلها تترنَّح وسقط سلاحُها من يدها، واقترب الكولونيل من «إلهام» شاهرًا مسدسه صوب رأسها ... فراقبَته «إلهام» بعينَين غائمتَين، وقال لها في حقد: يمكنني قتلك برصاصة واحدة في رأسك ... ولكني لن أفعل ذلك قبل أن تلاقي عذابًا قاسيًا ... ستتمنين معه الموت ... وسأترك ذلك المصري الذي جئتِ لإنقاذه يموت أمامك بأزمته القلبية، فإذا لم تقضِ عليه حتى الصباح تكفلت جرعة مضاعفة من السم لتُنهيَ حياته ... أما إذا فكر رفيقك قائد الهليكوبتر في المجيء لإنقاذك فسيجد في انتظاره حفلًا حاشدًا أيضًا.

وصرخ الكولونيل في حراسه: خذوا هذه الفتاة وقيدوها إلى سقف السجن.

فاقتاد الحراس «إلهام» إلى الخارج وهي تسير مترنحة ... واقترب منها أحدهم ليُقيد يدَيها بحبل سميك فعاجلَته بضربة من قدمها فترنَّح للخلف، ولكن زميله عاجلها بضربة قاسية أسالَت الدماء من فمها.

وغمغمَت «إلهام» في ألم: لسوف تدفعون الثمن مضاعفًا أيها الأوغاد! ... وأُقسم على ذلك.

والتقط بعض الحراس نهاية الحبل ومرروه من حلقة حديدية في سقف السجن، ثم جذبوا الحبل، فوجدت «إلهام» نفسها ترتفع في الهواء والحبال تجذبها من يدَيها في ألم قاتل.

عضَّت «إلهام» على شفتيها لتكتم آهة ألم قاسية كادت تفلت من شفتيها، لكيلا تُظهرَ أية بادرة ضعف أمام أعدائها ... وأطلق الكولونيل ضحكة قاسية وهو يراقبها قائلًا: فلنرَ كم من الوقت ستتحملين هذه الآلام أيتها الفتاة!

ولوَّح بيده مضيفًا: ولكني أعدك أن أخلصك من عذابك بطلقة واحدة من مسدسي ... قبل أن تُشرق شمس الصباح.

وأشار بيده فدفع الحراس بالمهندس «حلمي»، وطرحوه قريبًا من «إلهام»، فسقط على الأرض وهو يشهق بألم حاد ممسكًا بصدره ... وقد بدَا أن أزمته القلبية قد تضاعفت ... وأن شمس الصباح لن تشرق عليه حيًّا هو الآخر.

وتجمَّعَت الدموع في عينَي «إلهام» ... لم تكن آلامها تهمُّها ولا حياتها ... وكل ما تمنَّته في تلك اللحظة هو إنقاذ المهندس «حلمي» مهما كان الثمن.

ولكن كان يبدو أملًا مستحيلًا في تلك الظروف. وفكرت ... حتى لو بادر الشياطين إلى مساعدتها في الحال ما استطاعوا إنقاذها أبدًا أو اقتحام السجن الرهيب.

وتضاعفت آلامها فصارت لا تحتمل ... وأنقذها فقدانها لوعيها من الآلام القاتلة في الوقت المناسب.

السقوط في الفخ!

استمع الشياطين الأربعة ورقم «٧٧» إلى الحوار الذي دار بين «إلهام» والكولونيل «فريدريك» من خلال جهاز الإرسال الدقيق جدًّا المثبت في سترة «إلهام»، والذي لم ينتبه أحد إلى حقيقته داخل السجن، وانتفض «أحمد» في غضب وهو يقول: هؤلاء الأبالسة الأوغاد! ... لقد اكتشفوا حقيقة «إلهام» بسرعة ... وعلينا أن نتدخل لإنقاذها.

قال «عثمان» في حماس: علينا أن نقوم بشنِّ هجوم خاطف بالهليكوبتر ونرجم هؤلاء الأوغاد بالصواريخ والقنابل.

ولكن «أحمد» هز رأسه رافضًا للفكرة، وقال: هذه الخطة خطرة؛ فقد تُصيب قذائفنا «إلهام» والمهندس «حلمي»، وأيضًا ربما رصدتنا الأجهزة والصواريخ المضادة للطائرات المثبتة فوق أسوار السجن.

والتفت إلى «علا» قائلًا: هل يمكنك أن تساعدينا يا رقم «٧٧» بأية معلومة عن هذا السجن وحرَّاسه لم تخبرينا بها من قبل؟

قطَّبت «علا» حاجبَيها مفكرة للحظات، ثم قالت: إن هناك تبادلًا للحراس يجري كل أسبوع، فيتسلم عشرة من الحراس أماكنهم داخل السجن خلال زورق سريع من جزيرة «صقلية»، ويحصل زملاؤهم على إجازة ويعودون بالزورق إلى الجزيرة ... وهذه العملية تجري فجر كل يوم أحد.

التمعت عينَا «أحمد» وقال: إن غدًا هو الأحد ... وعلى ذلك ليس أمامنا غير ساعات قليلة على القيام بالمهمة!

تساءلت «هدى» في حيرة: ماذا تقصد يا «أحمد»؟!

أحمد: سوف تفهمين كلَّ شيء في الطريق؛ فلا وقت للضياع ... والآن عليك أن تقودينا يا رقم «٧٧» إلى النقطة التي ينطلق منها الحراس بزورقهم للسجن.

هبَّت «علا» واقفة وهي تقول: إنها ليست بعيدة من هنا ... هيَّا بنا.

واستقلوا سيارة التاكسي ... وخلال الطريق أخذ «أحمد» يشرح للباقين تفاصيل خطته، وهم يستمعون إليه في إنصات.

واقتربوا من الهدف المحدد، فأوقفَت «علا» سيارتها بعيدًا ... وتسللوا إلى الشاطئ ... كان هناك زورقٌ كبير مشدود إلى مرساة صغيرة بالشاطئ، وليس هناك أحد إلى جواره. همس «عثمان»: إنهم لم يأتوا بعد ... علينا أن نكمن في انتظارهم.

ومرَّ الوقت سريعًا ... وأخيرًا بدأ توافد الحراس بزيِّهم الخاص ومدافعهم الرشاشة ... ولحسن الحظ أنهم أتَوا واحدًا بعد الآخر ... وكان هذا مما سهل مهمة الشياطين ... فقد تكفل كلُّ واحد منهم باثنين من الحراس، وفي ضربات سريعة قاصمة انتهى الجزء الأول من المهمة، ورقد الحراس فاقدي الوعي لشدة ما نالوه من ضربات.

وقام الشياطين بتقييد الحراس العشرة وأخفَوهم خلف بعض الصخور بعد أن استولوا على ملابس خمسة منهم وارتدوها ... وأخفَت «علا» شعرها تحت قبعة الحارس الذي استولَت على ملابسه ولطَّخَت وجهَها ببعض الشحم لإخفاء رقة ملامحها ... وخلال دقائق كان زورق الحراس يشقُّ طريقَه إلى جزيرة السجن مبكرًا عن موعده بساعة كاملة، وما كاد الزورق يقترب من شواطئ الجزيرة حتى سلطت عليه الأضواء الكاشفة من بقعة بأعلى أسوار السجن. وقفز الشياطين إلى الشاطئ واقتربوا من بوابة السجن ودقوها، انفتحَت البوابة الكبيرة بعد دقائق، وأطل حارس عابس يغالب نومه وهو يقول: لقد جئتم مبكرين عن موعدكم المعتاد وأيقظتموني من نومي!

أجابه «أحمد»: نحن أيضًا، أيقظونا من نومنا.

أجابه «عثمان» بابتسامة عريضة كشفَت عن بياض أسنانه: أرى أنك استعدت وعيك سريعًا يا صاح وليس هذا في صالحك!

وطارت قبضته لتهشم فكَّ حارس البوابة وتُلقيه على الأرض بلا حراك ... وهمس «أحمد» لزملائه: علينا بالانتشار سريعًا داخل السجن، واستعادة «إلهام» والمهندس «حلمي» دون صوت لمغادرة السجن بأسرع ما يمكننا، وحاذروا من إطلاق الرصاص وإلا انكشفت حيلتنا.

هزَّ الباقون رءوسهم بنعم ... ثم تسللوا كالفهود ليختفوا في أعماقه.

كان السجن واسعًا مترامي الأطراف ... وكان من الصعب تحديد مكان «إلهام» بداخله، خاصة وأنها كانت فاقدة لوعيها ويستحيل مساعدتها لزملائها.

وكان على «أحمد» أن يعتمد على حاسته السادسة ... وهي لم تخذله قط من قبل ... وأخذ طريقه جهة الشرق في حذر ... وشاهد اثنين من الحراس يجوبان فناء السجن وهما يضحكان وقال أحدهما: كانت خدعة هذه الفتاة المصرية بارعة حقًّا ... ولكن الكولونيل يمتلك من الخدع ما هو أشد براعة!

فأجابه الثاني: إنها إلى جانب مهارتها بارعة الجمال أيضًا ... ولسوء الحظ أن الكولونيل يرغب في التخلص منها سريعًا دون أن يُتيحَ لنا فرصة بعض اللهو معها!

وفجأة التفت الاثنان على الصوت الذي جاء من خلفهما يقول: ما رأيكما في بعض اللهو البديل أيها الوغدان؟

استدار الحارسان في لحظة واحدة ... وفي اللحظة التالية أو ربما في نفس اللحظة امتدَّت يدان من الظلام لتضربهما معًا ... فترنَّح الاثنان ثم سقطَا على الأرض دون حراك.

وقفز «أحمد» إلى الأمام ... وعلى ضوء يسير بعيد شاهد الشبح المعلق في الهواء من سقف الزنزانة ... شبح «إلهام»!

دق قلب «أحمد» سريعًا وأحسَّ بألم شديد لما يجري لـ «إلهام»، واندفع نحوها ... كان المهندس «حلمي» راقدًا على الأرض قريبًا منها بلا حراك، ولم يكن هناك أيُّ حراس قريبين من المكان ... خان بعضُ الشك «أحمد»، ولكن كان عليه التحرك سريعًا، وقبل أن يلتقط سكينته الصغيرة المثبتة في حزام ساقه سقطَت شبكة كبيرة فوقه من السقف وشلَّت حركته.

جمُد «أحمد» مكانه من المفاجأة لحظة واحدة! وعندما أدرك الخدعة التي سقط فيها، امتدت يداه إلى مدفعه الرشاش، ولكن عددًا من الحراس قفزوا فوقه وتكاثروا عليه، وأخذوا يشلون حركته وهو داخل الشبكة مثل أسد جريح.

وضاقَت الشبكة على «أحمد» فلم يَعُد قادرًا حتى على الحراك، فتعالَى صوتُ لهاثه كأنه ينفث نارًا محرقة ... وعلَت ضحكة عالية من الأمام ... ضحكة ساخرة إلى أقصى حد ... وظهر شخص يخترق الظلام إلى حيث بقعة الضوء المتسعة التي سُلِّطت على «أحمد» داخل الشبكة.

وكان الشخص القادم هو الكولونيل «فريدريك» ... واقترب من «أحمد» وهو يتأمله متلذذًا، وقال: مرحبًا بك أيها الشيطان في عريننا ... لقد كنت أتوقع وصولك؛ فقد خمنت أنك لن تقف ساكنًا بعد سقوط زميلتك بين أيدينا، وستسارع بإنقاذها، وهو ما دعاني إلى عدم انتزاع جهاز الإرسال الصغير المثبت على سترة زميلتك، حتى تكتشف ما حدث لها، وتسارع بإنقاذها.

جمُدت ملامح «أحمد» ولم ينطق ... ففي تلك اللحظة أدرك ما للكولونيل من مهارة وقدرة على الخداع ... وانطلق الكولونيل ضاحكًا بشدة وهو يضيف: ولهذا أعددت لك شركًا خداعيًّا صغيرًا بالقرب من زميلتك، وأنا موقن أنك ستسرع إليها حالما تطأ قدماك السجن.

أجابه «أحمد» قائلًا: أيها الوغد، ثق أنك ستلاقي عقابك في النهاية، وبأسرع مما تتصور، والمهم هو من يضحك في النهاية.

ارتسمت نظرة ساخرة في عينَي الكولونيل وقال: إذا كنت تقصد بقية زملائك مَن تسللوا إلى السجن فيُسعدني إبلاغك نبأ سقوطهم أيضًا داخل شراكنا!

وأشار الكولونيل بيده، فظهر عدد من الحراس وهم يدفعون أسراهم بغلظة ... كان بقية الشياطين قد سقطوا في الأسر أيضًا ... «عثمان» و«قيس» و«هدى» وكذلك «علا»... وقد كبَّلتهم جميعًا شباك من البلاستيك الذي يستحيل تمزيقه!

ترامق الشياطين من داخل الشباك في غضب حارق، وقال الكولونيل لـ «أحمد» ساخرًا: لقد توقعت أن يكون لك ولزميلتك بعضُ الأعوان في هذه المهمة ... وفكرت طويلًا لو أنني كنت مكانكم فكيف يمكنني دخول السجن دون أن ألفت الأنظار أو أضطر لإطلاق رصاصة واحدة، وعلى الفور هداني تفكيري إلى خدعة تبديل جنود الحراسة، وهو ما قمتم به بالضبط ... فساعدتموني للقبض عليكم دون أن تدروا!

وأشار بسيجاره المتوهج إلى وجه «أحمد» مواصلًا: كما قلت أنت ... فالمهم من يضحك أخيرًا ... وسوف أؤجل ضحكتي الأخيرة إلى الصباح عندما يتم إعدامكم جميعًا رميًا بالرصاص.

أما ذلك الرجل الذي سعيتم لإنقاذه، فلا أظن أن أجله سيمتد حتى الصباح وهو يعاني من سكرات الموت بسبب تأثير السم وأزمته القلبية.

وتقدَّم الكولونيل خطوة إلى الأمام، وتوقف أمام «علا». وحدق فيها بعينَين ملتهبتَين ثم قال لها: أما أنت أيتها الخائنة فلا أظن أن إطلاق الرصاص عليك سيشفي غليلي وكل رجال المافيا في «صقلية»؛ فقد خدعتنا طويلًا ولكننا اكتشفنا خيانتك لحسن الحظ في النهاية ... وفي الصباح سأجعلك تندمين على أنك فكرت في خيانتنا للحظة واحدة!

وصرخ الكولونيل في رجاله: خذوا هؤلاء الأسرى إلى الزنزانة ... وجهزوا فرقة إطلاق النار في الصباح لتقوم بعملها المعتاد.

قام الحراس بتخليص الشياطين من الشباك، وكاد «عثمان» أن يصوب ضربة قوية إلى الكولونيل «فريدريك»، ولكن نظرة محذرة من «أحمد» أوقفته عما كان سيفعله ... وقام الحراس بإنزال «إلهام» وتخليصها من الحبال، وكانت لا تزال فاقدة الوعي، فحملتها

«هدى» فوق كتفها وقد امتلأت عيناها بالدموع، على حين حمل «قيس» المهندس «حلمي» فوق ذراعيه، وسار الشياطين ورقم «٧٧» تحت فوهات المدافع الرشاشة نحو زنزانة ضخمة، جدرانها من الصخر، وبابها من الصلب ... وانغلق عليهم في عنف ... وأطل حارس مسلح من نافذة صغيرة مسدودة بالقضبان الحديدية إلى الشياطين في تهكم قائلًا: إذا كانت لديكم رغبة أخيرة فيسعدني تحقيقها لكم قبل أن تُزهق أرواحكم في الصباح.

أجابته «هدى» في غضب: إن رغبتنا الوحيدة هي أن تريحنا من رؤية وجهك القذر أيها الوغد! فأطلق الحارس ضحكة عالية ساخرة وابتعد عن المكان.

وانتفض «عثمان» غاضبًا وقال لـ «أحمد»: لماذا منعتني من قتل هذا الكولونيل الوحشي ... لقد كان في ذلك فرصتنا الأخيرة للنجاة!

ولم ينطق «أحمد» على الفور، وتعلَّق بصرُه بكاميرا تليفزيونية مخفاة بمهارة في السقف لم يكن هناك من شك أنها تنقل تحركاتهم وأن هناك ميكروفونًا سريًّا ينقل حديثهم إلى الكولونيل مباشرة ... وبلغة الأصابع أجاب «أحمد» «عثمان»: إن هجومك على الكولونيل ما كان سيفيد بشيء غير تنفيذ حكم الإعدام فينا فورًا بدلًا من الصباح!

واصل «عثمان» حديثه في غضب: وهل سنترك هؤلاء الأشرار يقتلوننا ويفرحون بانتصارهم علينا؟!

أجابه «أحمد» في غموض: علينا أن ننتظر إلى الصباح.

قال «قيس» في حزن وهو يُلقي نظرة على المهندس «حلمي»: إنه قد لا يظل حيًّا حتى الصباح، فهو بحاجة إلى جراحة عاجلة وأجهزة طبية متطورة، ولكني سأبذل معه كلَّ جهدي.

وأخذ يقوم بتدليك للقلب ليحافظ على نشاطه أطول فترة ممكنة ... أما «هدى» فأخذت تهز «إلهام» في رفق، و«علا» تقوم بتدليك معصمي «إلهام» مكان القيود التي أدمتها ... وفتحَت «إلهام» عينَيها بعد قليل، وبدَا أنها تستعيد وعيَها شيئًا فشيئًا ... وارتسمَت في عينَيها نظرة فيها ذهول، وعندما وقع بصرها على بقية زملائها ورقم «٧٧» داخل الزنزانة معها ... ولم تكن في حاجة إلى مَن يخبرها بما حدث ... وأن زملاءها بذلوا أقصى ما يستطيعون لإنقاذها فسقطوا في الشرَك أيضًا.

وامتلأَت عينَا «إلهام» بدموع ساخنة ... دموع يأس وألم!

المهم ... مَن يضحك أخيرًا!

كان لا يزال باقيًا على انقشاع الليل بعض الوقت، وقد بدأت خيوط النور تتسلل مخترقة ستار الظلام تطعنه برماحها فيتراجع كسيرًا مدحورًا في بطء، وكأنه مصرٌّ على التشبث بموقعه حتى الرمق الأخير ... كانت صفحة السماء شاعرية فاتنة في ذلك الوقت من الصباح الباكر.

ولكن نظرة مدققة إليها كانت ستلمح شيئًا ما كان يحلق في الأفق في دوائر متسعة.

كان طائرًا أسود اللون بجناحَين عريضَين ... لم يكن طائرًا واحدًا، بل ستة أو سبعة راحَت تعمل معًا بشكل متسق وهي تتبادل مواقعها في السماء محلقة فوق أسوار السجن بلا صوت، ودون أن ينتبه إليها حراسُ السجن.

وعندما مال أحدها في هبوط سريع حاد، كشفت بعض أضواء السجن حقيقته ... لم يكن طائرًا ... كان شخصًا في ملابس سوداء وقد تشبَّث بطائرة خفاشية، ساعدَته مهارته على التحليق بها والحركة في يسر.

واختار صاحب الطائرة الخفاشية مكانًا في قمة سور السجن فسقط فوقه في خفة، دون أن ينتبه الحارس القريب الذي جلس يغالبه النوم ... وفي الحال طوى صاحبنا جناحَيه الخفاشية، والتقط من حزامه عددًا من القنابل الموقوتة زرعها في أكثر من جزء من السور.

وتنبَّه الحارس أخيرًا إلى ذلك الشبح الأسود الذي انتصب فوقه، ففتح عينيه في ذهول متسائلًا: هل أنت إنسان أم شبح؟! ... ومن أي أرض أقبلتَ؟!

أجابه «مصباح» بابتسامة قاسية: لقد أتيتُ من أرض الشياطين، وحملتُ معي لك هدية خاصة، وطارَت قبضة «مصباح» لتُصيبَ الحارس فترنح للخلف، وبضربة من ساقه أطاح بالحارس فارتفع عاليًا، ثم تهاوى من فوق السور وسقط على الأرض في دويٍّ مكتوم.

والتفت «مصباح» فشاهد بقية زملائه من الشياطين وهم يسقطون فوق مواقعهم التي انتقوها من قبل؛ «بو عمير» ... «فهد» ... «باسم» ... «ريما» ... «زبيدة» ... «رشيد»... كانوا جميعًا لا يقلون مهارة في ذلك الهبوط، وقد تعوَّدوا على العمل في مثل تلك الظروف.

واندفع بقية الشياطين يزرعون قنابلهم في كل مكان دون أن يشعر بهم أحد الحراس ... ولحسن الحظ فإن أحدًا منهم لم يكن ينتظر هجومًا آخر ذلك الصباح.

واقتربت «ريما» من «باسم» هامسة: هل نبدأ هجومنا لتحرير الشياطين الأسرى؟

أجابها «باسم» وهو ينظر لساعة يده المضيئة: ليس قبل خمس دقائق عندما تنفجر أول قنابلنا فتُثير الارتباك والذعر بين صفوف المسلحين والحراس.

ريما: فلنستغل إذن هذه الدقائق في تقديم بعض الألعاب لهؤلاء الأوغاد.

واختفت في قلب الظلام ... ثم ظهرت فجأة لأحد الحراس كأنما انشقت الأرض عنها، فحدق فيها الحارس مندهشًا، وقبل أن ينطق بشيء هوَت «ريما» بمدفعها الرشاش فأرسلته إلى عالم الغيبوبة المؤلم.

وفي الجانب المقابل كانت «زبيدة» و«بو عمير» يؤديان نفس المهمة ... أما «فهد» فاختار مبنًى خاصًّا بالحراس، وتسلل داخله، وتعامل مع حارسه بالطريقة المناسبة، ثم أغلق الباب الفولاذي على بعض الحراس النائمين داخل المبنى.

ألقى «باسم» نظرة أخيرة إلى ساعته، والتمعَت عيناه وهو يقول: الآن!

ولم يكد يُتمُّ عبارتَه حتى دوَّى انفجار عنيف أطاح بجزء من سور السجن وهز المكان بعنف، وعلى الفور علا صوت صفارة إنذار طويلة ... وتصاعدت صرخات مفزوعة للحراس، واندفع بعضهم في اضطراب، لتفاجئهم قنبلة أخرى انفجرت على بعد عدة ياردات منهم أطاحت بنصفهم.

وأشار «فهد» لـ «مصباح» و«بو عمير» ... كان عليهم تنفيذ الجزء الثاني من الخطة ... واندفعوا ثلاثتهم إلى المبنى المحجوز به بقية الشياطين.

وعندما برزت لهم مجموعة الحراس داخل المكان تكفَّلت رصاصات الشياطين الثلاثة بإسقاط الحراس جرحى يئنون من الألم ... وبرشقة رصاص عنيفة في قفل الباب الفولاذي تهشم القفل وانفتح الباب على مصراعيه.

واندفع «مصباح» و«فهد» و«بو عمير» داخل الزنزانة، فتطلع إليهم بقية الشياطين في ذهول من ظهورهم المفاجئ، أما «أحمد» فلم تكن ملامحه تحمل أي قدر من الدهشة وهو يستقبل زملاءه الثلاثة قائلًا: إنكم لم تتأخروا عن معادكم ثانية واحدة.

تطلع «عثمان» في ذهول إلى «أحمد» وقال له: هل كنت على علم بوصول بقية الشياطين لمساعدتنا؟!

أجابه «أحمد» وهو يلتقط أحد مدافع الحراس: هناك بعض الأشياء لا تقال إلا في وقتها المناسب.

والتفت إلى «علا» قائلًا: عليك بحماية المهندس «حلمي» لحين انتهائنا من تصفية الحراس. تمالكَت «إلهام» نفسها وهي تشعر بدبيب النشاط في بدنها، بالرغم من آلام معصميها، وقالت وهي تلتقط مدفعًا رشاشًا لنفسها: إن هناك حسابًا قاسيًا يجب تصفيته مع هؤلاء الأوغاد.

فأشار «أحمد» لها باسمًا، وقال: لا تجعلي للحساب بقية ... فربما لا تُتاح فرصة أفضل من هذه، واندفع الجميع خارجين وسط دوي انفجارات بقية القنابل المزروعة في كل مكان، وقد بدأت في الانفجار متتابعة كل نصف دقيقة، فأحالت السجن إلى جحيم وأمسكت النيران بكثير من المباني.

واستقبل الشياطين بعض الحراس بالرصاص ... وقال «مصباح»: سأذهب لتحرير مجموعة السجناء ليشاركوا في الانتقام من هؤلاء الأوغاد.

واندفع إلى مبنى السجن الرئيسي وخلفه «رشيد» و«ريما».

واستدار «أحمد» على صوت هدير قوي، فشاهد عددًا من المصفحات والمدرعات، يقود أولها الكولونيل «فريدريك» وهي تتجه صوب الشياطين، وقد وجهت فوهات مدافعها إليهم.

وصرخ «أحمد» في زملائه: حاذروا!

وألقى الجميع بأنفسهم متدحرجين بعيدًا لتحاشي جحيم الطلقات التي انفجرت نحوهم ... وبحركة بارعة تشبَّث «أحمد» بمؤخرة المصفحة التي يقودها الكولونيل، وقفز فوقها كالفهد وأسقط قنبلة يدوية بداخلها.

ودوى انفجار شديد وتوقفت المصفحة مكانها. وحدث نفس الشيء لعدد آخر من المصفحات، على حين استولى «باسم» على إحداها وأخذ يقذف بقية مصفحات ومدرعات الحراس بالقذائف فأشعل فيها النار.

نظرت «إلهام» إلى الأرض وقالت: لقد لقيَ هذا الكولونيل الوحشي النهاية التي يستحقها وها هي الضحكة الأخيرة كانت من نصيبنا!

ودوَّى انفجار رهيب في نفس اللحظة واندلعَت كرة لهب ضخمة إلى السماء، فقالت «زبيدة»: لقد انفجر مخزن أسلحة وقنابل السجن ... وسوف يرى الانفجارَ كلُّ سكان جزيرة «صقلية».

قالت «إلهام» في قلق: علينا أن نُسرع لمغادرة هذه الجزيرة في أسرع وقت، وإلا هرعت كل رءوس المافيا إلى هنا في أقل من نصف ساعة.

وبرز «مصباح» و«رشيد» و«ريما» وخلفهم مجموعة من السجناء وقد تسلحوا بكل ما وصلت إليه أيديهم، واندفعوا نحو بقية الحراس ليردوا ما سبق ونالوه على أيديهم من آلام وتعذيب.

وانتهت المعركة خلال دقائق، فقال «عثمان» في توتر: لنسرع بمغادرة الجزيرة قبل وصول رجال المافيا أو الشرطة من «صقلية».

قالت «هدى» في قلق: ولكن كيف سنغادر هذه الجزيرة ونحن لا نملك الزوارق الكافية لذلك لنحمل معنا هؤلاء المساجين التعساء؟!

قال «قيس» بقلق أشد: وحتى لو امتلكنا هذه الزوارق فإننا لن نستطيع أن نذهب بها إلى أي مكان ... فأقرب جزيرة أو أرض تبتعد مسافة كبيرة ... ولن يمكننا بالطبع العودة إلى «صقلية»!

تنبهت «إلهام» إلى شيء ... كان عدد الشياطين على الجزيرة مكتملًا عدا واحدًا ... وتساءلت في دهشة: أين «خالد»؟!

وجاءتها الإجابة سريعًا في نفس اللحظة عندما برزت مقدمة غواصة كبيرة أمام سواحل الجزيرة وانفتحت طاقتها بسرعة وبرز فيها وجهٌ مألوف ... وجه «خالد»!

صرخت «إلهام» بفرحة: لنسرع إلى الغواصة ... فقد جاءت في اللحظة المناسبة!

أجابها «أحمد» باسمًا: لقد جاء «خالد» في موعده تمامًا.

وسرعان ما كان جوف الغواصة يتسع للشياطين والسجناء، وأخذت تغوص مرة أخرى فاختفت في قلب الماء، تاركة جزيرة السجن وقد تحولت إلى كتلة من الحطام المشتعل.

وهتف «خالد» في زملائه: أسرعوا بحمل المهندس «حلمي» إلى حجرة الجراحة ... فقد أعددنا حجرة عمليات خاصة داخل الغواصة، وفيها طاقم جراحي ماهر لعمليات القلب.

فحمل «قيس» المهندس «حلمي» إلى حجرة العمليات ... وخلال أقل من خمس دقائق بدأت العمليات الجراحية الخطيرة، والغواصة تأخذ طريقها إلى البحر الأبيض المتوسط وقد وقف الشياطين أمام باب حجرة العمليات في قلق وتوتر.

وسألت «هدى» «مصباح» بدهشة: ولكن مَن أخبركم بما جرى لنا؟! وكيف أمكنكم الوصول إلينا في اللحظة المناسبة؟!

أشار «مصباح» إلى «أحمد» قائلًا: إنه وضع هذه اللحظة!

تعلَّقت عيون الشياطين بـ «أحمد»، فقال: لقد خشيت من البداية من وقوعنا في قبضة حراس السجن بأية خدعة، ولذلك طلبت من رقم «صفر» أن يتبعنا بقية الشياطين في غواصة تختفي قريبًا من شواطئ جزيرة السجن، ورسمتُ لبقية الشياطين خطة العمل بالدقيقة في حال وقوع المجموعة الأولى في الأسر ... وقد قاموا بتنفيذها ببراعة!

قطب «عثمان» حاجبَيه قائلًا: ولماذا لم تُخبرنا بذلك يا «أحمد»؟!

قال «أحمد»: لقد خشيت أن يكون هناك مَن يراقبنا طوال الوقت، وأن أعداءنا ربما يفهمون لغة العيون والأصابع التي نجيدها فتفتضح الخطة؛ ولهذا احتفظت بها سرًّا.

تطلَّعَت «علا» بإعجاب بـ «أحمد» وتساءلت: وماذا ستفعل بهؤلاء المساجين الذين حررناهم؟

أجابها «أحمد»: سوف نعود بهم معنا إلى «مصر»، وبعد ذلك سيكون من حقهم البقاء فيها أو العودة إلى بلادهم وفضح ما قامت به الموساد والمافيا ضدهم.

ورمق «أحمد» «علا» بإعجاب مضيفًا: أنتِ أيضًا قمتِ بعمل رائع يا رقم «٧٧» ... ولحسن الحظ أن من اكتشفوا حقيقتك على جزيرة السجن انتقلوا إلى الجحيم، فيمكنك العودة إلى «صقلية» لتمارسي عملك مرة أخرى.

قالت «علا» باسمة: ليس قبل أن أحصل على إجازة طويلة في «مصر»؛ فقد أوحشتني كثيرًا.

ومرت ساعتان بطيئتان مثقلتان بالقلق الشديد، قبل أن يظهر أحد الجراحين خارجًا من حجرة العمليات وعلى وجهه علامات إرهاق شديدة.

وصاحت «إلهام» به: كيف كانت نتيجة العملية؟

أجابها الجراح: كانت الحالة حرجة جدًّا ... ولو تأخر نقل هذا المريض إلينا دقائق قليلة لما أمكننا أن نفعل شيئًا له!

واتسعَت ابتسامة منه وهو يضيف. ولكننا تمكنَّا من إنقاذ حياته بفضل الله ... وسوف يستعيد صحتَه بسرعة.

صرخ الشياطين من الفرحة، وتعانقوا بشدة بعيون امتلأت بالدموع، فشاركهم بقية المساجين فرحتهم البالغة ... وقد بدَت الغواصة التي تحملهم في جوفها مثل مارد عملاق يتسيد المياه، ويستحيل على أيِّ مخلوق التصدي له أو هزيمته.

هنداوي